تفسير سورة المنافقين

وهى مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين : أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبى ﷺ ، فأما فى باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضدّ من ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أى : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون. ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ . ثم قال: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ؛ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحَلْفات الآثمة ، ليصدقوا فيما يقولون ، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم ، فاعتقد أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا فى الباطن لا يألون الإسلام وأهله خَبَالا ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس . ولهذا قال تعالى: ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. ولهذا كان الضحاك بن مُزَاحم يقرؤها : « اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً » أى: تصديقهم الظاهر جُنَّة ، أى: تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرؤها :﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ جميع يمين . وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾أى :إنما قُدّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران ، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أى: فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص إليها خير ، فلا تعى ولا تهتدى .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أى:كانوا أشكالاً حسنة وذوى فصاحة وألسنة، إذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك فى غاية الضعف والخَور والهلع والجزع والجبن ؛ ولهذا قال: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف ، يعتقدون ، لجبنهم ، أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الاحزاب:١٩] ، فهم جَهَامات وصور بلا معانى . ولهذا قال : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ

قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى : كيف يُصرَفون عن الهدى إلى الضلال .

وقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نُهبَة ، وغنيمتهم غلول ،ولا يقربون المساجد إلا هَجْرا ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرا ، مستكبرين لا يألَفون ولا يُؤلَفون ، خُشُبٌ بالليل، صُخُب بالنهار » .وقال يزيد مرةً : سُخُبٌ بالنهار (١) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين ـ عليهم لعائن الله ـ أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾أى :صَدوا وأعرضوا عما قيل لهم ،استكباراً عن ذلك ، واحتقارا لما قيل لهم. ولهذا قال: ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

ثم جازاهم على ذلك فقال: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾، كما قال فى سورة «براءة »، وقد تقدم الكلام عن ذلك، وإيراد الأحاديث المروية هناك.

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله بن أبى ابن سلول ، كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان . وقد قال محمد (٢) بن إسحاق فى السيرة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة ـ يعنى مَرْجِعَه من أحد ـ وكان عبد الله بن أبى ابن سلول ـ كما حدثنى ابن شهاب الزهرى ـ له مقام يَقُومه كل جُمُعة لا يُنكر، شَرَفاً له من نفسه ومن قومه ، وكان فيهم شريفا ، إذا جلس النبى ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام ، فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله به، وأعزكم به، فانصروه وعَزّروه ،واسمعوا له وأطيعوا. ثم جلس ،

---

(١) المسند (٧٩١٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده حسن ـ ثم قال ـ : النهبة ـ بضم النون وسكون الهاء : اسم الانتهاب، كالنهبى، بالألف المقصورة ،وقوله: « لا يقربون المساجد إلا هجراً » هو بفتح الهاء من « هجراً » والهجر: الترك والإعراض عن الشىء . يعنى : أنهم لا يقربون المساجد ،بل يهجرونها.وقوله : ولا يأتون الصلاة إلا دبرا »: هو بفتح الدال المهملة وسكون الموحدة ، أى : آخراً ، حين كاد الإمام أن يفرغ . « خشب بالليل »: أى ينامون الليل لا يصلون. شبههم فى تمددهم نياما بالخشب المطرّحة . قال ابن الأثير : « تضم الشين ، وتسكن تخفيفاً ». «صخب بالنهار » بضم الصاد المهملة والخاء المعجمة . وفى الرواية الأخرى ليزيد فى الحديث «سخب» بالسين المهملة .والسخب والصخب : الضجة واضطراب الأصوات للخصام . قال الزمخشرى فى الفائق : ٣٤٥ » والأصل السين . . . والصاد بدل . والذى أبدلت له وقوع الخاء، بعدها ، كقولهم : « صخر » فى « سخر » . والغين والقاف والطاء أخوات الخاء فى ذلك . . . والمراد رفع أصواتهم وضجيجهم فى المجادلات والخصومات وغير ذلك » . وقال ابن الأثير :« أى إذا جن عليهم الليل سقطوا نياماً ، كأنهم خشب ، فإذا أصبحوا تساخبوا على الدنيا شحاً وحرصاً » .

(٢) فى المطبوعة حُرِّف إلى : « عبد الله » .

حتى إذا صَنَع يوم أحُد ما صنع ـ يعنى مرجعه بثلث الجيش ـ ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس ، أى عدو الله ، لست لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعتَ . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بَجْراً ؛ أن قُمت أشدد أمره . فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك . ما لك ؟ قال : قمتُ أشدد أمره ، فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى ، لكأنما قلت بَجْراً ، أن قمت أشدد أمره . قالوا : ويلك . ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى [1] .

وقال قتادة والسدى : أنزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى ، وذلك أن غلاما من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك ، واقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعَذَموه [2] ، وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله ﷺ ؟ فجعل يلوى رأسه ، أى : لست فاعلا. وإن ذلك كان فى غزوة المُرَيسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق .

وقال يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق: حدثنى محمد بن يحيى بن حبَّان، وعبد الله بن أبى بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادة ، فى قصة بنى المصطلق : فبينا رسول الله مقيم هناك ، اقتتل على الماء جَهجاه بن سعيد الغفارى ـ وكان أجيرا ـ لعمر بن الخطاب ، وسنان بن وَبْر ، قال ابن إسحاق: فحدثنى محمد بن يحيى بن حبَّان قال: ازدحما على الماء فاقتتلا ، فقال سنان: يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين ـ وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبى ـ فلما سمعها قال: قد ثاوَرونا فى بلادنا. والله ما مثلُنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : «سَمن كلبك يأكلك». والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها . فسمعها زيد بن الأرقم ، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غُلَيِّم ــ وعنده ابن الخطاب ــ فأخبره الخبر ، فقال عمر : يا رسول الله مرْ عَبَّاد بن بشْر فليضرب عنقه . فقال ﷺ : « فكيف إذا تحدث الناس ـ يا عمر ــ أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد يا عمر فى الرحيل » . فلما بلغ عبدَ الله بن أبى أن ذلك قد بلغ رسولَ الله ﷺ ، أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم ــ وكان عند قومه بمكان ــ فقالوا : يا رسول الله ، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال . وراح رسول الله ﷺ مُهجِّراً فى ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة ، ثم قال: والله لقد رُحتَ فى ساعة مُنكَرة ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله ﷺ : « أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبى ؟ . زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل » . قال : فأنت ـ يا رسول الله ــ العزيزُ وهو الذليل . ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الْخَرَزَ لِتُتَوِّجه ، فإنه ليرى أن قد استلبتَه ملكا . فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا ، وليلته حتى أصبحوا ، وصَدَرَ يومه حتى اشتد الضحى. ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث ، فلم يأمن الناس أن وجدوا مَس الأرض

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦٩) .

(٢) فى المطبوعة : « غرموه » وهو تصحيف . ومعنى « عذموه » : أخذوه بألسنتهم .

فناموا ، ونزلت سورة المنافقين [١] .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقى عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غَزَاة فكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصارى: ياللأنصار. وقال المهاجرى : يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة » . وقال عبد الله بن أبى ابن سلول : وقد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك ، فقال عمر: دعنى أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبى ﷺ : « دعه ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ». ورواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم نحوه [٢] .

وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فقال عبد الله ابن أبى : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال : فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، قال : فحلف عبد الله بن أبى أنه لم يكن شىء من ذلك . قال : فلامنى قومى وقالوا : ما أردتَ إلى هذا؟ قال : فانطلقت فنمتُ كئيبا حَزينا ، قال: فأرسل إلى نبى الله ﷺ فقال : « إن الله قد أنزل عُذرَكَ وصَدّقك » . قال : فنزلت هذه الآية ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ ورواه البخارى والترمذى والنسائى [٣]. ثم روى أحمد أيضا: عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصاب الناس شدةٌ، فقال عبد الله ابن أبى لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فأتيت النبى ﷺ فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبى فسأله ، فاجتهد يمينَه ما فعل . فقالوا : كذب زيد يا رسول الله . فوقع فى نفسى ما قالوا ، حتى أنزل الله تصديقى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ . قال : ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم . وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ قال : كانوا رجالا أجمل شىء .وقد رواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى [٤] .

وروى أبو عيسى الترمذى عن زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نَبتَدرُ الماء ، وكان الأعراب يسبقوننا يسبق الأعرابى أصحابه يملأ الحوض ، ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النّطع عليه حتى يجىء أصحابه . قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابى ، فأرخى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً ففاض الماء ، فرفع الأعرابى خشبة ، فضرب بها رأس الأنصارى فشجّه ، فأتى عبدَ الله بن أبىّ رأسَ المنافقين فأخبره ـ وكان من أصحابه ـ فغضب عبد الله بن أبى ، ثم قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ـ يعنى الأعراب ـ وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام . فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فأتوا محمداً بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨).
(٢) البيهقى فى الدلائل (٤/ ٥٣) ،والمسند (٣/ ٣٩٢)،والبخارى (٤٩٠٧) ومسلم (٢٥٨٤/ ٦٢).
(٣) المسند (٤/ ٣٦٨) والبخارى (٤٩٠٢) والترمذى (٣٣١٤)والنسائى فى الكبرى ١١٩٤).
(٤) المسند (٤/ ٣٧٣) والبخارى (٤٩٠٠ ، ٤٩٠٣) ومسلم (٢٧٧٢ / ١) والترمذى (٣٣١٢) .

منها الأذل . قال زيد : وأنا ردْف عَمّى ، فسمعتُ عبد الله فأخبرت عَمّى ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه رسول الله ، فحلف وجَحَد ، قال : فصدقه رسول الله ﷺ وكذبنى ، فجاء إلى عمى فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبكَ والمسلمون . فوقع علىّ من الغم ما لم يقع على أحد قط ، فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ فى سفر وقد خَفَقْتُ برأسى من الهم ، إذ أتانى رسول الله ﷺ فَعَرَكَ أذنى ، وضحك فى وجهى ، فما كان يسرنى أن لى بها الخلد فى الدنيا ، ثم إن أبا بكر لحقنى وقال: ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قلت: ما قال لى رسول الله شيئاً ، غير أن عرك أذنى وضحك فى وجهى. فقال: أبشر . ثم لحقنى عمر فقلت له مثل قولى لأبى بكر . فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين .انفرد بإخراجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وهكذا رواه الحافظ البيهقى وزاد بعد قوله «سورة المنافقين» ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ﴾ حتى بلغ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ (١) .

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى عاصم بن عُمَر بن قتادة : أن عَبدَ الله بن أبى ـ يعنى لما بلغه ما كان من أمر أبيه ـ أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبَىّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته، ما بقى معنا » (٢) . وذكر عكرمةُ وابن زيد وغيرهما: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبدُ الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه: وراءك. فقال : ما لك ؟ ويلك. فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذنَ لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل . فلما جاء رسول الله ﷺ ـ وكان إنما يسير ساقة ـ فشكا إليه عبدُ الله بن أبىّ ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فَجُز الآن .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من التَلَهّى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ثم حثهم على الإنفاق فى طاعته فقال : ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ، فكل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ، يستعتب ويستدرك ما فاته ، وهيهات !

(١) الترمذى (٣٣١٣) والبيهقى فى الدلائل (٤/ ٥٤) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٨) .

كان ما كان ، وأتى ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، أما الكفار فكما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] . وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ، ١٠٠].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : لا ينظر أحداً بعد حلول أجله ، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً فى قوله وسؤاله ممن لو رُدّ لعاد إلى شر مما كان عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

obeikandl.com